غنـــــاء الطيور

بين العلم والأدب

للأستاذ ضياء الدخيلي

(بقية المنشور فى العدد الماضى)

وظن بعض الشعراء غناء الحمامة نوحاً لفقد إلفها الذى فارقها فأخذ يطارحها الزفرات ويواسيها بنواحه قال الشبلى .

رب ورقاء هتوف فى الضحى ... ذات شجو صدحت فى فنن[1]
ذكرت إلفاً وعيشاً سالفا ... فبكت حزناً فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها ... وبكاها ربما أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها ... وهى أيضاً بالجوى تعرفنى
أتراها بالبكا مولمة ... أم سقاها البين ماجرعنى

وقال ابن عبد ربه .

فكيف ولى قاب إذا هبت الصبا ... أهاب بشوق فى الضلوع دفين
ويهتاج منه كل ما كان ساكنا ... دعاء حمام لم تبت بوكون[2]
وإن ارتياحى من بكاء حمامة ... كذى شجن داويته بشجون
كأن حمام الأيك[3] لما تجاوبت ... حزين بكى من رحمة لحزين

وقال ابن سنان الخفاجى .

وهاتفة فى البان[4] تملى غرامها ... علينا وتتلو من صبابتها صحفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالة ... وقد جاوبت من كل ناحية إلفا
ويشجى قلوب العاشقين حنينها ... وما فهموا مما تغنت به حرفا
ولو صدقت فيما تقول من الأسى ... لما لبست طوقا ولا خضبت كفا

وقال مجنون ليلى .

ألا يا حمامات اللوى[5] عدن عودة ... فبى إلى أصواتكن حزين
فعدت فلما عدن كدن يقتلنى ... وكدت بأشجانى لهن أبين

(١) غصن . (٢) عشش . (٣) الشجر الكثير الملتف .
(٤) البان شجر معتدل القوام لين ورقه كورق الصفصاف يؤخذ من حبه دهن طيب واحدته بانه ويشبه به القد لطوله واعتداله .
(٥) اللوى ما التوى وانعطف من الرمل أو مستدقه .

فلم ترعينى مثلهن بواكيا ... بكين ولم تذرف[1] لهن عيون

وقال ابن عبد ربه .

ونائح فى غصون الأيك أرقنى ... وما عنيت بشىء ظل يعنيه
مطوق بخضاب ما يزايله ... حتى تزايله إحدى تراقيه[2]
قد بات يشكو بشجو ما دريت به ... وبت أشكو بشجو ليس يدريه

وقال شيبانى وقد طالت غربته فى الرأى .

وارقنى بالرى نـــوح حمامـــة ... فنحت وذو الشوق الغريب ينوح
على أنها ناحت ولم تذر دمعة ... ونحت وأسراب الدموع سفوح
وباحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخى مهامه فيح[3]
ألا يا حمام الأيك الفك حاضر ... وغصنك ميادٌ[4] ففيم تنوح ؟
أفق لا تنح من غير شىء فإننى ... بكيت زماناً والفؤاد صحيح
ولوعاً فشطت[5] غربة دار زينب ... وها أنا أبكى والفؤاد جريح

وقال ديك الجن .

حمائم ورق فى حمى ورق خضر[6] ... لهـا مقل تجرى الدموع ولا تجرى
تكلفن إســـعاد الغريبة أن بكت ... وإن كن لا يدرين كيف جوى الصدر

وقال ابن دريد خرجنا من عمان فى سفر لنا فنزلنا فى أصل نخلة فنظرت فإذا فاختتان[7] ترقوان[8] فى فرعها فقلت .

أقـــول لورقا وين فى فرع نخلة ... وقد طفل[9] الأمســـاء أو جنح[10] العصر
وقد بسطت هاتى لتلك جناحها ... ومال على هاتيك من هذه النحر
ليهنكما أن لم تراعا بفرقة ... ومادب فى تشتيت شملكما الدهر

(١) ذرف الدمع سال ودرفت العين دمعها أسالته .
(٢) الترقوة العظم الذى فى أعلى الصدر بين ثغرة النحر والعاتق والجمع تراق . (٣) المهمه المفازة البعيدة والبلد القفر جمعه مهامه ، وفيح جمع فيحاء أى واسعة .
(٤) الميادة الكثير التأبل والاهتزاز . (٥) بعدت .
(٦) ورق جمع ورقاء كحمر جمع حمراء والورقاء هى الحمامة أو التى يضرب لونها إلى الخضرة .
(٧) الفاختة نوع من الحمام البرى (كذا فى المنجد) وإن كنا فى العراق نطلقه على حمام النخيل .
(٨) ورقا المؤنث ماح . (٩) طفل دخل فى الطفل وهو قبيل غروب الشمس هما طفلت الشمس دنت للغروب . (١٠) جنح الليل أقبل .

فلم أر مثلى قطع الشوق قلبه على أنه يحكى قساوته الصخر

وقال عبد البر الغسانى يخاطب طائراً منفرداً ضم أفراخه إليه .

أعدهن ألحاناً على سمع معرب
بطارح مرتاحا على القضب[1] ممجا

وطرغير مقصوص الجناح مرفها مسوغ أشتات الحبوب متعما
تخلى وأفراخا بوكرك نوماً ألا ليت أفراخى معى كن نوما

وقال حميد بن ثور الهلالى .

وما هاج هذا الشوق إلا حمامة دعت (ساق حر) ترهة وترنما
تغنت على غصنى عشاء فلم تدع لنائحة من نوحها متألما
إذا حركته الريح أو مال ميلة تغنت عليه ماثلا ومقوما

قال الجوهرى الحمام عند العرب ذوات الأطواق نحو الفواخت والقمارى وساق حر والقطا والوراشين وأشباه ذلك وقال الأصمعى إن كل ذات طوق فهى حمام والمراد بالطوق الحمرة والخضرة أو السواد المحيط بعنق الحمامة فى طوقها ونقل الأزهرى أن الحمام كل ماعب وهدر وإن تفرقت أسماؤه والعب شدة جرع الماء من غير تنفس .

وقال ابن سيده يقال فى الطائر عب ولا يقال شرب والهدير ترجيع الصوت ومواصلته من غير تقطيع له قال الدميرى فى (حياة الحيوان) الورشان هو ساق حر وهو ذكر القمارى وسمى ساق حر حكاية لصوته .

وقال أمين المعلوف الحمام الكثير فى مدن العراق والذى يألف المساجد يدعى الحمام الطورانى ويسمونه فى مصر الحمام الأزرق .

وقال ابن سنان .

أتظن الورق فى الأيك تغنى إنها تضمر حزناً مثل حزنى
لا أراك الله نجداً بعدها أيها الحادى بها أن لم تجبنى
هل تبارينى إلى بث الجوى فى ديار الحى نشوى ذات غصن
هب لها السبق ولكن زادنا أننا نبكى عليها وتغنى

وقال الأرجانى .

ومما شجانى وقد ودعوا بكاء الحمام على ساقها
تنوح على بعد ألافها وتظهر مكنون أشواقها
لبسن حداداً ومزقنه فلم تدخر غير أزياقها[1]
وضاقت صدوراً بأنفاسها ففضت مجامع أطواقها
وقد نزفت[2] فى الهوى دمعها فلم يبق ماء بآماقها[3]

وقال بعض الأعراب .

وقبلى أبكي كل من كان ذاهوى
هتوف البواكى والديار البلاقع[4]
وهى على الاطلال من كل جانب نوائح ماتخضل[5] منها المدامع
مزبرجة الأعناق غر ظهورها محطمة بالدر خضر روائع

مزبرجة من الزبرج وهو الزخرف والزينة ومخطمة من الخطم وهو منقار الطائر أو من خطمه بالخطام أى جعله على أنفه وهو حبل يجعل فى عنق البعير ويثنى فى خطمه أى مقدم أنفه وفمه .

ترى طرراً بين الخوافى كأنها حواشى برد زينتها الوشائع

الوشائع جمع وشيعة وهى الطرائق فى الثوب والخوافى ريشات من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت .

ومن قطع اليواقوت صيغت عيونها
خواضب بالحناء منها الأصابع

وقال الشبيبى من شعراء العراق اليوم .

يشكو الصبابة كل يوم مدمع وأحقنا دعوى بها من ذاقها
لو أنصفت تلك الحمائم لوعتى نضت[6] الخضاب ومزقت أطواقها
يا هذه حتى الغصون لما بها نثرت على وجه الثرى أوراقها
مثل التى لزم الخفوق جناحها أصبحت مرتكض[7] الحشا[8] خفاقها

وقال الشرقى وهو شاعر عراقى يخشى اليوم أن يطبع ديوانه لما فيه من ثورات فكرية على السياسة والاجتماع دفعه فى تياراتها جموح الشباب ومال به عن تيماتها حذر الشيخوخة وهواجسها

(١) القضب كقبر كل شجرة طالت واسترسلت أغصانها والقضب أيضاً شجر تتخذ منه القسى وأيضاً الأغصان المقطوعة الواحدة قضبة .

(١) الزيق من الثوب ما أحاط منه بالعنق وما كف من جانب الجيب والجيب من القميص طوقه وعند العامة الجيب هو كيس يخاط فى جانب الثوب من الداخل ويجعل فمه من الخارج وليس هذا المراد من تعريف الزيق .
(٢) نزف عبرته أنفدها . (٣) المؤق مجرى الدمع من العين
(٤) القفار . (٥) بدي وابل .
(٦) نضا الثوب عنه نزعه وخلعه .
(٧) ارتكض تحرك واضطرب
(٨) الحشا ما انضمت عليه الضلوع .

أنا يا حمامات الأراك مغرد ... لكن برغم حلاك لا أتطوق
طوباك خلصك الجناح فما استوى ... روح مقيدة وروح مطلق
ضاعفت وجد الحائرين فليتهم ... إذ لم يكونوا طائرين تعلقوا

وقال أيضاً .

حمام الدير هل فى الدير رهط ... يدل الظامئين على الزلال

وقال السيد حيدر الحلى وهو من شعراء العراق الذين توخوا الجزالة وروعة السبك وكان معجباً به شوق (رحمهما الله) فيما تحدث الرواة وجل شعره فى رثاء سيدنا الحسين وباقى شهداء كربلاء رضوان الله عليهم .

وادعت حولى الشجاذات طوق ... مات منها على النياح الهجوع
شاطرتنى بزعمها الداء حزنا ... حين أنت وقلبى الموجوع[1]
يا طروب المشى خلفك أعنى ... ما حنينى صـــبابة وولوع

وقال الأخرس البغدادى .

يا ورق أين غرام قلبك من شج ... جمل النواح لشجوه معتادا
أو تشبهين الصب عند نواحه ؟ ... ولقد يحاكيك بمدمعه وجادا

وقال محمد سعيد الحبوبى من المتأخرين وهو شاعر بلغ الغاية فى رقة الغزل وقد جارى الأندلسيين فى موشحاتهم فأتى بالبدائع وفى آخر حياته رحمه الله رفع لواء الجهاد المقدس ومات مسموماً فى حروب العراق ضد العدوان .

أحمامة الوادى عداك هوى ... لو حل فرعك أحرق الفرعا
أنى اتخذتك لى منادمـــة ... ولقد شربت فنردى سجعا

وقال :

يا حمام الدوح[2] بالله أعد ... سجعك اليوم لصب[3] وأجد
إن تكن مثلى مهجوراً فزد ... ربما يطفى غليلى[4] ربما

سجعك اليوم بلحن مطرب

يا حماماً أن فى وادى العقيق ... لا أرى لى غيرك اليوم صديق
فمتى من سكرة الحب تفيق ؟ ... وإلى ما فيه تخشى اللوما ؟

وتراعى نظرة المرتقب ؟

(١) قال الفيروزبادى فى القاموس وجع كسمع ووعد لغة يوجع ويجع (على وزن يسع) ويجع (على وزن يعد) فهو وجع كخل حمه وجعون وواجعه آله قاسم المفعول يجيء بصيغتين موجع وموجوع .
(٢) الدوح جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة الفسحة .
(٣) العاشق وذو الوجع الشديد .
(٤) العطش الشديد وحرارة الحب أو الحزن .

يا حماما لم ترعـــه بالفراق ... جيرة تعقد بالهجر النطاق[1]
أنت والغصن بضم وعناق ... وبأسر الريم[2] أصبحت وما

دفعت عنى سرايا العرب

وله من موشحه أخرى .

وحـــمام البشر غنى وتلا ... سير[3] اللهو ينادى الطرب
قد رقى منبر بان واعتلى ... فى سروج كروج[4] الذهب
فهو لا ينفك يعلى الملا ... أعنقت بالحزن عنقا مغرب
بغنا ناهيك[5] فيه من غنا ... خمرة اللهو به لم تمـــزج
أترى معبد الق المـــدنا ... لحـــام السقط والمنعرج

أعنق أسرع والعنق نوع من السير وعنقاء مغرب طائر معروف الاسم مجهول الجسم وقيل طائر يبعد فى طيرانه وكنى بذلك عن عدم وجود الحزن والمدن خمس طرائق من الغناء اخترعها نفسه وسبب تسميتها بذلك أن قتيبة أحد الفاتحين فى أخريات القرن الأول من الإسلام فتح خمس مدن فى إحدى غزواته فقيل لمعبد المغنى ذلك . فقال وأنا اخترعت خمس طرق من الأغانى تعادل عندى تلك المدن الخمس راجع الكامل المبرد تجد تفصيل ذلك والسقط معظم الرمل والمنعرج منعطف الوادى .

وقال محمد مهدى الجواهرى شاعر العاطفة الفياضة والوصف الرائع ومتزعم الفكرة التقدمية فى العراق :

وهاتفـــه راعها مقـدمى ... فـلاذت بأغصانها الميـل
أيا ورق لا تذعرى إننـا ... شربنا العواطف من منهل

وقال ابن الدمينة :

ألا ياسبا نجد متى هجت من نجد ؟ ... لقد زادنى مسراك وجداً على وجد
أإن هتفت ورقاء فى رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الوليد ولم تكن
جزوعا وأبديت الذى لم تكن تبدى

(١) النطاق ما يشد به الوسط .
(٢) الريم الظبى الخالص البياض . (٣) جمع سيرة .
(٤) المرج الأرض الواسعة يهابت كثير تمرح فيه الدواب أى ترعى فيه
(٥) يقال ناهيك بزيد فارساً فى مقام التعجب والإستعظام بمعنى أنه يغنيه فى تطلبه يسهاك عن تطلب غيره وهذا رجل ناهيك من رجـــل كلمة يتعجب بها فى مقام المدح ثم كثر حتى استعمل فى كل تعجب .

وقال الخباز البلدى :

ذرى شجر للطير فيها تشاجر ... كأن صنوف النور فيها جواهر
كأن القمارى والبلابل فوقها ... قيان[1] وأوراق الغصون ستائر
شربنا على ذاك الترنم قهوة[2] ... كأن على حافاتها الدر دائر

وقال محمد بن على العاملى :

فى ربوع كأنهن جنان ... عطفت جورها على الولدان
ورياض كأنهن سماء ... أطلعت أنجما من الأقحوان[3]
بين ورق كأنهن قيان ... ركبت فى حلوقهن المثانى[4]
وغصون كأنهن نشاوى ... يترقصن عن قدود الثوانى

وقال ابن خفاجة :

وإراكة سجع الهديل بفرعها ... والصبح يسفر عن جبين نهار
هزت له أعطافها ولربما ... خلعت عليه ملاءة الأنوار[5]

وقال ابن وكيع :

غرد الطير فنبه من نعس ... وأدر كأسك فالعيش خلس
سل سيف الفجر من غمد الدجى ... وتعرى الصبح من ثوب الغلس[6]

وقال أبو الحسن المجريطى :

ألا حبذا نوح الحمامة سحرة ... وقد شق جيب الليل عن لبة الفجر[7]

وسال نجيع[8] الفجر من ثغرة الدجى[9]

وخمش[10] ثكل الليل من صفحة البدر

وقال السرى الرفاء :

وصاحب يقدح لى ... نار السرور بالقدح
فى روضة لبست ... من لؤلؤ الطل سبح

يألفنى حمامها ... مغتبقاً ومصطبح
أوقظه بالعزف أو ... يوقظنى إذا صدح
والجو فى ممسك ... طرازه قوس قدح
يبكى بلا حزن كما ... يضحك من غير فرح

غير أن المعرى يتردد فى شكوكه قائلا :

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ... ـت على فرع غصنها المياد ؟

وقد أصاب فى تشكيكه وعدم اعتباره غنائها نواحاً كما ظن كثير من الشعراء ولكنه فاته أن الغناء من الذكور وليس من الأناث كما أوضح ذلك دارون وعلماء الطبيعة الآخرون إلا إذا اعتبرنا التأنيث هنا لفظياً قال فى المنجد الحمام طائر معروف والواحدة حمامة ويقال حمامة للذكر والأنثى لأن الهاء هنا ليست للتأنيث بل للدلالة على أنه واحد من جنس وربما قالوا حمام للواحد جمعه حمائم وحمامات .

وقال بعض الأندلسيين :

انظر إلى النهر فيها ... ينساب كالأفعوان
والطير تخطب شكراً ... على ذرا الأغصان
والقضب تلتف سكراً ... بمائس القضبان
والروض يفتر زهواً ... عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو ... لو جنة النعمان

وقال الشرقى من قصيدة احتفال الطيور :

ما ترى أيها الحمام الكئيب ؟ ... كل شىء حتى الحجارة باسم
كل آن هزيمة وهروب ... أحياة الطيور ملأى هزائم
قال لى وهو خائف مستريب ... الخوافى تهيب بى والقوادم
عجباً كيف يطمئن الأريب ... لأناس تخاف منها البهائم ؟

قال السيد على خان فى كتابه (أنوار الربيع فى علم البديع) فى فصل الاستعارة وكان شديد النهور كثير البطش ذاهباً بنفسه كل مذهب قال ابن سعيد صاحب القدح المعلى سمعته مرة وهو فى محفل يقول يقيمون القيامة لحبيب والبحترى والمتنبى ، وفى عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتدوا إليه ، فأهوى له شخص له قحة وإقدام فقال : يا أبا جعفر فأرنا برهان ذلك ما أظنك تعنى إلا نفسك . قال نعم ولم لا ؟ وأنا الذى أقول ما لم يتنبه له متقدم ولا يهتدى لمثله متأخر .

---

(١) القينة المغنية جمعها قيان .

(٢) الخمرة قيل سميت الخمر بذلك لأن شاربها يغمى عن الطعام أى تقل شهوته له .

(٣) الأقحوان نبات له زهر أبيض وأوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان .

(٤) مثنى وهو ما بعد الأول من أوتار العود .

(٥) الملاءة ثوب يلبس على الفخذين والأنوار جمع نور بفتح النون وهو الزهر أو الأبيض منه (٦) الغلس ظلمة آخر الليل .

(٧) اللبة موضع القلادة من الصدر .

(٨) النجيع من الدم ما كان مائلا إلى السواد .

(٩) الثغرة نقرة المنحرين الترقوتين (١٠) خمش الوجه خدشه ولطمه